

الفاشية

ومبادئها القومية والاقتصادية

للاستاذ محمد عبد الله عنان

كانت مبادئ الثورة الفرنسية روح الحركات الدستورية والديموقراطية التي جاشت بها معظم الامم الاوروبية خلال القرن التاسع عشر، وكانت الحريات الدستورية والديموقراطية الى ما قبل الحرب هي المثل القومية والشعبية العليا. ولكن الحرب صدعت من صرح المبادئ المحرقة والانسانية، ونبذت الى الامم والجماعات الاوربية كثيرا من النزعات الرجعية، فاستردت القومية المتعصبة سابق قوتها وعادت الاتحاد القومية الى سابق اضطرابها، وشغلت الديموقراطية بخلافاتها ومعاركها الداخلية عن مواجهة الخطر الذي يهددها. ولم تلبث الحركة الرجعية حتى احرزت فوزها الاول بقيام الفاشية الابطالية، ثم بقيام حكومات طغيان اخرى في اسبانيا وبولونيا وبوجوسلافيا تحتقر الحقوق والحريات الدستورية وتعمل لسمها، وان كانت مع ذلك لا ترى بأسا من أن تستورواها وتعمل باسمها في أحيان كثيرة. ولم تكن الفاشية الابطالية حين قيامها واستئثارها بمقاييد الحكم والسultan في ايطاليا، سوى حركة محلية قامت في ظروف خاصة، ولم يكن يقدر لها يومئذ انها ستغدو ذات يوم فكرة قومية تهب ريمحا على كثير من الامم الاوربية الاخرى، وانها ستغدو نظاما عاما للدولة يطبق اليوم في دولة عظيمة اخرى هي المانيا مع خلاف يسير في الوسائل والغايات، وتقتبس منه اليوم دول اوروبية اخرى كالمسا التي اصدرت دستورها الجديد على أساس المبادئ الفاشية، بل تذاع اليوم دعوتها في بلاد ديموقراطية عريقة كانت تكثر اياها يقوم بها حزب يدعو الى النظام الفاشي.

وظفر الفاشية على هذا النحو يدعو الى استعراض المبادئ الجهورية التي تقوم عليها، والظواهر الخاصة التي تتميز بها. ويجب أولا ألا ننسى ان الفاشية تفتك مع البشعة في الاحتثار بجميع السلطات والسيطرة على جميع موارد

الجمهورية، وأن الفاشية من حيث هي نظام طغيان مطلق نشأ بالبشعة كل الشعب. يد أن هنالك فروقا جهورية بينهما في الوسائل والغايات ستأتي عليها فيما بعد. ودعامة الفاشية الاولى هي الفكرة القومية، وعليها تقوم جميع مبادئ هذا النظام، واليها ترجع جميع غاياته: فالفاشية ترى أن « الأمة » هي حقيقة طبيعية تاريخية، مثلها لا على هو أن أبناء البلد الواحد اخوة تجمعهم رابطة القومية العامة، ولا تحقق سعادة الأمة بقيام فريق منها ضد فريق آخر ولا طبقة منها ضد طبقة أخرى، بل يجب أن تنظم جميع الطوائف والطبقات والقوى لصالح الأمة المشتركة، وباسم الوطن الواحد. وترى الفاشية انها جديدة طريقة في جوهرها فهي لا تريد أن تصلح أو تحيى نظاما قائما، ولكنها تدعى انها تقيم حضارة مكان حضارة، وتنشئ نظاما جديدة لينا الدولة والمجتمع مكان نظم ذاهبة؛ وعندها ان جميع المبادئ والنظم القديمة قد عفت ولا تصلح بعد للعمل على احياء الحضارة أو المجتمع، ولا بد أن تقلب من أساسها، وأن تبدأ الحضارة والمجتمع حياة فنية جديدة على ضوء المبادئ والنظم الجديدة. والدولة الفاشية لا تقوم على النظام الرأسمالي، ثم هي لا تقوم أيضا على النظام الاشتراكي؛ فالإنسان لم يخلق في نظرها لكسب المال فقط، ولم يخلق أيضا ليقاوم المحظوظين والمنعبيين من بني وطنه، ولكنه خلق ليؤدي واجبا اعظم من ذلك واسمى هو الواجب القومي.

واذا كانت الجامعة القومية هي دعامة النظام الفاشي، فان الفكرة التجارية هي روح هذا الاتجاه القومي؛ وهي اهم ظاهرة في تكوين الدولة الفاشية؛ فالدولة الفاشية لا تقوم كاتقوم الدولة الديموقراطية على فكرة التنافس الحزبي والطائفي في سبيل السلطة، ولكنها تقوم على تعاون جميع الطبقات والقوى القومية. وقد عرف السنيور موسوليني في إحدى خطبه الأخيرة هذه الفكرة التنافسية في ما يأتي: « إنها هي الاداة التي تسترشد بها الدولة في وضع النظام الاساسي الشامل الموحد لجميع القوى المنتجة بالامة للعمل على تنمية موارد الشعب الايطالي وقوته السياسية ورفاهته » وفي قوله « لقد أعطى النظام الرأسمالي والنظام الاشتراكي كل ما يمكن أن يعطيه، ونحن نرث من كل منهما كل ما فيه من العناصر الجيدة ». ويلاحظ ان الفاشية لبنت على قيامها مدى اعوام قبل أن تضع الفكرة التعاونية موضع

نضال الطوائف ، وتقوم مهمة الثانية على الفكرة التعاونية ، ولكن البلاشفة يسخرون من هذه الفكرة ويقولون ان تعاون الطبقات ذات المصالح المختلفة مستحيل بطبيعته ، وان الطغيات الفاشستي يتخذ من التعاون حيلة لاختضاع الطبقات العاملة ، وان هذا التعاون انما هو تعاون الذئاب مع الاغنام . هذا وثمة فارق جوهري آخر بين النظامين هو أن البلشفية تذهب في برنامجها الهدام الى حدود بعيدة ، فتزى أن تحقيق مثلها لا يكون الا بهدم كل المبادئ والنظم القائمة ، واستبدالها بمبادئ ونظم أخرى من تفكيرها وصنعها . ولكن الفاشستية لا تذهب في قصد الهدم الى هذا الحد ، فهي ترى أن تأخذ من النظم القائمة ما يلائم غاياتها ، ولا ترى بأساً من أن تقتبس من الاشتراكية كما تقتبس من الرأسمالية .

وتستطيع الفاشستية أن تدعى اليوم أنها قد أصبحت حركة عالمية بعد أن لبثت الى ما قبل عامين حركة ايطالية محلية ، فبأنزها ومنها السياسية والاجتماعية تسيطر اليوم على أمة عظيمة أخرى هي ألمانيا . وطنيان والوطنية الاشتراكية الذي يفرضه الماتريون اليوم على الشعب الألماني يقوم على نفس الوسائل التي شقت بها الفاشستية طريقها الى السلطان والحكم منذ اثني عشرة عاماً . بيد أن الفاشستية الألمانية تنقصها الطراقة ، ويغلب فيها التقليد على الابتكار ، وتنقصها بالآخر الزعامة الممتازة ، وتقدمها بهذه السرعة يرجع الى وسائل العنف والارهاب أكثر مما يرجع الى وسائل الانفاع والتأثير . وهي في جوهرها كالفاشستية الإيطالية تقوم على الفكرة القومية ، وحشد أبناء الوطن الواحد تحت لواء واحد ؛ ولكنها تذهب في فهم الفكرة القومية الى حد التعصب الجنسي والديني الواضح ، وهو حد لم تبلغه الفاشستية الإيطالية قط ، فزعما الوطنية الاشتراكية الألمانية : أعني هرملر وزملاءه يمزجون الفكرة القومية بفكرة الجنس والسلالة ويفرقون بين الجنس الآري والاجناس الأخرى ، ويقولون إن الشعب الألماني هو شعب آري أشقر يتفوق بالدم والمزايا الجنسية والفكرية على جميع شعوب الأرض ، ويشبهون العداء على غير الآريين ؛ ومن ثم كانت ثورة الخصومة السامية ومطاردة اليهود الألمانين نتيجة أنهم غير آريين وأن وجودهم خطر جنسي واجتماعي على الشعب الألماني ، وهي حركة تعصب شائن لم تضم الفاشستية الإيطالية في أي طور من أطوارها

التطبيق وتغذيها أساساً لتنظيم الدولة الاجتماعي والسياسي ، ففي ابريل سنة ١٩٢٧ اصدرت حكومة روما « لائحة العمل » وهي القانون الاجتماعي الاساسي للدولة الفاشستية ؛ وفيه تعرف الدولة التعاونية وتشرح نظمها ويشرح قانون العمل المشترك وضماناته والاعمال التعاونية وتربية العمال . وترى الدولة الفاشستية أن العمل ليس مجهوداً يبذله العامل لكسب قوته ، ويستمتع به صاحب المال ، وليس هو الذكاء أو الجرأة أو الاثارة التي تحرك النظام الرأسمالي ، ولكن العمل طبق النظرية الجديدة هو مجموعة صنوف النشاط التي ترمي الى تنمية موارد الأمة المعنوية والمادية ؛ والنظرية الفاشستية تبعد هنا كل البعد عند مبدأ الحرية الاقتصادية وقانون المرض والطلب ؛ وتقدم الفكرة المعنوية على كل هذه الاعتبارات ، فكل عضو في جماعة عاملة عقلية أو فنية او مادية إنما هو قبل كل شيء من أبناء الدولة ، وهو يدخل بذلك الاعتبار في دائرة القانون الخاص ، والقانون العام ، بل يدخل في دائرة القانون الدستوري . ولم تقف الفاشستية في تطبيق الفكرة التعاونية عند الناحية الاجتماعية ولكنها شطت في سنة ١٩٢٩ خطوة أساسية أخرى ، فطبقتها من الوجهة الدستورية ، وقررت تحويل التمثيل السياسي الى تمثيل تعاوني ؛ واجريت الانتخابات البرلمانية لمجلس يتألف اعضاءه من ممثلي النقابات والجماعات التعاونية . وأخيراً منذ ايام قلائل فقط اصدرت الفاشستية كتابها الفاصلة في النظام البرلماني قررت الغاءه وبذلك قضت الدولة الفاشستية على آخر المبادئ والآثار الراسخة التي تقوم عليها الديمقراطية ، وأضحى تقوم على مبادئها الخالصة الاجتماعية والسياسية .

وتشارك البلشفية مع الفاشستية كما قدمنا من حيث هي نظام طغيان مطلق ، ولكن البلشفية تقف في الطرف الآخر معارضة للفاشستية كل المعارضة في الفكرة القومية . فالبلشفية تقوم قبل كل شيء على مبدأ نضال الطوائف والطبقات الاجتماعية ، وعلى مبدأ سيادة الكتلة العاملة ؛ وترى ابانيفية أن التاريخ لم يكن في جميع عصوره سوى نضال بين الطوائف ، وأن قوى الأمة الحقيقية ومواردها تتكون قبل كل شيء من العمل أو جهود الكتلة العاملة ؛ وشعارها هو سيادة الكتلة العاملة ، ولا تتحقق هذه السيادة الا بسحق الطبقة الرأسمالية ؛ وهذا هو الفارق الجوهري بين البلشفية والفاشستية . فالاولى تقوم مهمتها الاجتماعية والاقتصادية على

حل العقد بقطعها

بعض مواقف الفعل — فقد العالم الى العبارة

الناس مفتقرون في كل حين من الدهر الى رجال يحلون العقد لا بالنفث فيها كما يصنع أهل السحر والشعوذة ، بل بقطعها توفيراً للوقت وكفاية لمؤونة التعب وبرهاناً على العبقرية . كما صنع ذو القرنين منذ اثنين وعشرين قرناً . وكما صنع المتنبى منذ عشرة قرون . . . وكما صنع لورد كرومر في أواخر القرن الماضي . وكما صنع مصطفى كمال في رواية الامريكي التائه .

ذلك بان جمهرة الخلق قوالون وياعو كلام أكثر منهم فعالين ، سواء في ذلك منهم خاصتهم وعامتهم . فاذا عرضت لهم عقدة مهما يكن موضوعها اشتغلوا بالحرف وحقه ، وعدوا عن الروح وجذته . والغالب أن يشكل عليهم فهم الحرف فيروحون يتغبطون فيه وفي تأويله حتى يتروم فيهم من يضرب بالحرف عرض الحائط وينبذ اللفظ ويشرب في قلبه حب الروح ويفقه المعنى فيحل العقدة بأسرع مما عقدت .

دور القوميين

أما ما صنع اسكندر المقدوني الكبير نيلز أرسطوطاليس الفيلسوف العظيم في أوائل القرن الثالث قبل المسيح فهو أنه زار أحد هياكل آلهة اليونان فرأى عقدة معقودة ومحبوكة ، فسأل عنها ، فقال له الكهنة والمتنبئون والسحرة والغافلون في العقد : أن من يحل هذه العقدة يفتح آسيا ، فجرب فلم يفلح ، ولكن أومض في صدره تبس العبقري التي استمدتها من معلمه فلم يلبث أن استل سيفه وحل العقدة بقطعها وترك الذين حولوه مصعوقين ، وفتح أمامه السيل الى فتح آسيا

أنه يوم تبرا أوروبا القديمة من الجراح التي أصابها من جراء الحرب الكبرى ، ومن القوضى السياسية والاجتماعية والاقتصادية التي هزت أسس المجتمع الاوربي القديم ، فإن صرح الفاشية سيأخذ عندئذ في الانهار والتطور ، وستعود المثل الحرة والمستوزية القديمة الى تيوى زعامتها وسيادتها في الدولة والمجتمع ؟

محمد عبد الله عنان

الحامى

وكانت ذريعة سياسية في الواقع رأى المنطريون في اتخاذها تحقيقاً لبعض خططهم السياسية والاقتصادية ؛ وتذهب الفاشية الالمانية الى أبعد من ذلك فتعتبر جميع الاجناس السامية والشرقية اجناساً دنحطة ، هدامة للحضارة ، يجب أن يسودها الجنس الآرى

وأما من الوجهة الاقتصادية ، فإن الفاشية الالمانية غامضة في وسائلها وغاياتها . فهي تزعم انها اشتراكية على حين انها أبعد — الاشياء عن الاشتراكية . وهي تعتمد في خططها الاقتصادية على التقليد والاقباس من الفاشية الايطالية ؛ فقد اصدت مثلاً قانوناً « لتنظيم العمل القومى » على مثل لائحة العمل الايطالية ؛ وجمعت نواحي الانتاج المادى والفكرى في دوائر معينة مقتبسة نظام النقابات الايطالى . ويعرف الدكتور فدر احد علماء الوطنية الاشتراكية الاقتصاديين مهبة الحكومة النازية في الميدان الاقتصادى بما يأتى : « ان الوطنية الاشتراكية تعارض فكرة جعل الاقتصاد القومى قومياً . والواقع انه اذا كان من واجب الدولة ان تدير شئون البلاد الاقتصادية فيجب ان يكون شعارها عدم التدخل في الانتاج ، ومهمة الحكومة الجمهورية هي التنظيم ، فعلى الدولة أن تدير شئون البلاد دون أن تشترك فيها . وهذا هو الباعث الذى يوجه الاقتصاد الوطنى الاشتراكى . »

وقد حققت الفاشية في ايطاليا دولة قوية ومجتمعا جديداً قوياً ، وبذلت جهوداً خليقة بالاعجاب لتسمية الموارد القومية وتنظيم الانتاج القومى ، ويئت الى الشعب الايطالى قوى معنوية جديدة ، ورفعت هبة ايطاليا الخارجية . ولكننا لانستطيع حتى ازاء هذه النتائج البديعة أن ننسى الوسائل العنيفة التي حققت بها الفاشية سيادتها وسلطانها ، ولانستطيع أن ننسى أنها ما زالت تحقق ظفرها على حساب الحريات الدستورية والشعبية . واذا كانت الفاشية قد استطاعت أن تدير حتى اليوم في طريق التقدم والظفر ، فلنا نستطيع مع ذلك أن نؤمره ابقوله زعمائوها ودعاتها من انها أصبحت تبتوأ مكاتبا المستقرة الراسخة بين الانظمة السياسية والاجتماعية العرفية ، وانها أصبحت نظام المستقبل ، ذلك أنها تتوهم على كثير من العنف وتغليب الارادة الفردية والوسائل المصطنعة ، ولا تنفق في كثير من مبادئها وغاياتها مع المبادئ والغايات الانسانية المثلى ، وليست من جهة أخرى تتفق مع النزعات الحرة الراسخة التي يمتاز بها التطور العلمى والاجتماعى في عصرنا ؛ ومن المستق